محمَّد(١)

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبه شيءٍ بعمل « كريستوف كولمب » في الكشف عن أمريكة ، وإظهارها من الدُّنيا للدُّنيا : لم يخلق وجودها ، ولكنَّه أوجدها في التَّاريخ البشريِّ ، وذهب إليها ، فقيل : جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته : أنَّه رآها بالعين ؛ الَّتي في عقله ، ثمَّ وضع بينه وبينها الصَّبر ، والمعاناة ، والحِذق ، والعلم حتَّى انتهى إليها حقيقةً ماثلةً .

قرأ الأستاذ كتب السِّيرة ، وما تناولها من كتب التَّاريخ ، والطَّبقات ، والحديث والشَّمائل بقريحةٍ غير قريحة المؤرِّخ ، وفكرةٍ غير فكرة الفقيه ، وطريقةٍ غير طريقة المحدِّث . وخيالٍ غير خيال القاصِّ ، وعقلٍ غير عقل الزَّندقة ، وطبيعةٍ غير طبيعة الرَّأي ، وقصدٍ غير قصد الجدل ، فخلص له الفنُّ الجميل الَّذي فيها ؛ إذ قرأها بقريحته الفنِّيَّة المشبوبة(٢) ، وأمرَّها على إحساسه الشَّاعر المتوثِّب ، واستلَّها من التَّاريخ بهذه القريحة ، وهذا الإحساس ، كما هي في طبيعتها السَّامية ، متَّجهةً إلى غرضها الإلـٰهيِّ ، محقِّقةً عجائبها الرُّوحانيَّة المعجزة .

وقد أمدَّته السِّيرة بكلِّ ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت في يده كما يلين الذَّهب في يد صائغه . فجاء بها من جوهرها ، وطبيعتها ، ليس له فيها خيالٌ ، ولا رأيٌ ، ولا تعبيرٌ ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبدع الخيال ، وأسمى الرأي ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنِّيَّة تلك الأحوال النَّفسيَّة البليغة . فنظمها على قانونها في الحياة ، وجمع حوادثها المدوَّنة ، فصوَّرها في هيئة وقوعها ، كما وقعت ، واستخرج القصَص المرسَلة ، فأدارها حواراً كما جاءت في ألسنة أهلها ، وبهذه الطَّريقة أعاد التَّاريخ حيّاً ، يتكلَّم ، وفيه الفكرة وملائكتها ، وشياطينها ، وكشف ذلك الجمال الرُّوحانيّ ، فكان هو الفنُّ ، وجلا تلك النُّفوس العالية ، فكانت هي الفلسفة ؛ وأبقى على تلك البلاغة فكانت هي البيان ، كانت

---

(١) كتاب توفيق الحكيم . (ع) .

(٢) « المشبوبة » : الجميلة ، الحسنة الوجه .

السِّيرة كاللُّؤلؤة في الصَّدفة ، فاستخرجها ، فجعلها اللُّؤلؤة وحدَها .

* * *

إنَّ هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطَّريقة الفنِّيَّة البديعة ، فليس يمكن أن يقال : إنَّه لا ضرورة لوجوده ؛ إذ هو الضَّروريُّ من السِّيرة في زمننا هذا ، ولا يُغتمز فيه : أنَّه تخريفٌ ، وتزويرٌ ، وتلفيقٌ ، إذ ليس فيه حرفٌ من ذلك ، ولا يردُّ بأنَّه يخطئ المخطئ منها ، ويصيب المصيب ؛ إذ هو على نصِّ التَّاريخ كما حفظته الأسانيد ، ولا يُرمى بالغثاثة[1] ، والرَّكاكة ، وضعف النَّسق ؛ إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص ، كما رُويت بألفاظها ، فقد حصَّنه المؤلِّف تحصيناً لا يقتحم ، وكان في عمله مخلصاً أتمَّ الإخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كلَّ الدِّقَّة ، حذراً بغاية الحذر .

ومن فوائد هذه الطَّريقة : أنَّها هيَّأت السِّيرة للتَّرجمة إلى اللُّغات الأخرى في شكلٍ من أحسن أشكالها يُرْغِمُ هذا الزَّمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة في التَّاريخ الإنسانيِّ ، كما أنَّها قرَّبت ، وسهَّلت ، فجعلت السِّيرة في نصِّها العربيِّ كتاباً مدرسيّاً بليغاً بلاغة القلب ، واللِّسان ، مربِّياً للرُّوح ، مرهفاً للذَّوق . مصحِّحاً للملكة البيانيَّة .

وحسبُ المؤلِّف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربيِّ : إنَّ ابن هشام كان أوَّل من هذَّب السِّيرة تهذيباً تاريخيّاً على نظم التَّاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أوَّل من هذَّبها تهذيباً فنِّيّاً على نسق الفنِّ .

* * *

(١) « الغثاثة » : الغثُّ من الكلام : الرديء الفاسد .